

نظرة على مباني وأصول وأساليب

التربية السياسية عند الإمام علي(ع)

الدكتور محمد الحسنيني*
تعريب: الشيخ محمد أيوب

من الأمور الهامة عند منظري النظم التعليمية في مجتمعات هذا العصر؛ تربية المواطنين على التأقلم الفعال والبسيط مع الجمعيات والمؤسسات السياسية والاجتماعية الكثيرة والمعقدة والمتحولة بشكل مطرد، ليشاركوا عن دراية وفهم في الأمور العامة سياسياً واجتماعياً، ولقد دفع هذا الموضوع بالأنظمة التعليمية في مختلف الدول إلى تحرك حثيث. وبعبارة أخرى، فإن التربية المدنية والسياسية وكذلك تنمية الروح المدنية والإحساس تجاه المسائل الاجتماعية كان من نتائج هذه الأنظمة وهذا ما كان متوقفاً منها.

وكذلك الحال في النظام التربوي المستند إلى التعاليم الإسلامية؛ حيث يستفاد من روح التعاليم القرآنية وسنة النبي(ص) والأئمة المعصومين(ع) أن القسم الأهم في هوية الإسلام هو نظامه الاجتماعي، وعليه فمن الجدير بنا أن نلتفت إلى هذا الأمر الهام.

من الناحية النظرية لا بد لنا أولاً من تهيئة الأساس المناسب لهذا الأمر؛ لكي تستند أصول التربية السياسية على المباني والأصول والأساليب.

ولقد سعينا في هذه المقالة إلى فتح نافذة على هذا البحث لتكون

* عضو في مركز
أبحاث التربية والتعليم.
إيران.

مقدمة لأبحاث أعمق وأدق في مجال إيضاح تدوين أصول التربية السياسية ومبانيها وأساليبها من خلال سيرة الإمام علي(ع) وأقواله في نهج البلاغة.

لقد سعى الإمام علي(ع) بشكل كبير طوال خمس سنوات وهي مدة حكمه إلى تقديم الحضارة المبتنية على القيم الإسلامية في مجتمع متفرق ومضطرب كان قد بدأ حركة رجعية مشؤومة إلى القيم الجاهلية، وقد انعكس بعض هذا الأمر في نهج البلاغة.

إن التربية السياسية تندرج تحت عنوان أشمل هو التربية المدنية والتي هي نفسها تعد موضوعاً قابلاً للبحث والمناقشة، وترتبط بتعريف المجتمع المدني، ونحن وإن كنا لا نريد الدخول في هذا البحث بالتفصيل، إلا أن من الضروري، في بداية الكلام، أن نقدم تعريفاً للتربية السياسية.

يمكن، في نظرنا، تعريف التربية السياسية بأنها مجموعة المعارف والنظريات والمهارات اللازمة لحضور المواطن المسلم المؤثر والفعال على الساحة الوطنية والعالمية. والمراد من المباني في هذه المقالة البيانات التوصيفية المرتبطة بالخصائص الأساسية للإنسان.

وأما الأصول، فهي البيانات التجويزية والوجوبية الناتجة عن تلك المباني، هذا وإن استطعنا أن نشق من كل مبنى أصلاً أو أصولاً، إلا أنه يمكننا القول: إن الأصول الناتجة عن كل مبنى ليست مطلقة ويمكن لكل مبنى أن يشتمل على أصول أخرى أيضاً.

وأما الأساليب فقد نُظر إليها في هذه المقالة بوصفها البيانات التجويزية المحدودة والمصاديق لتلك الأصول.^(١)

وكذلك هنا أيضاً، فإن الأسلوب يمكن أن يؤيد بعدة أصول. وبعبارة أخرى: يكون مصداقاً لعدة أصول، ومثال ذلك أصل الشورى المستمد من الأصل العقلاني يمكن أن يؤيد بمبنى الكرامة والضعف، والدليل على ذلك أن كل مبنى هو توصيف لقسم من المجتمع الإنساني ولكن لأجل تحصيل تصوير متكامل، فلا بد من ضم المباني بعضها إلى بعضها الآخر.

مبنى الكرامة

تعد الكرامة الإنسانية من الخصائص القيمة والأساسية للإنسان في المصادر والنصوص الإسلامية، وهذه الصفة موهبة إلهية: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم﴾^(٢).

ويشير الإمام علي (ع) إلى هذه الكرامة في الخطبة الأولى من نهج البلاغة الحاكية عن صفة خلق آدم فيقول: «واستأدى الله سبحانه الملائكة وديعته لديهم، وعهد وصيته إليهم، في الإذعان والسجود له والخشوع (الخنوع) لتكريمته فقال سبحانه وتعالى: ﴿اسجدوا لأدم﴾، فسجدوا...»^(٣).

وكتب (ع) إلى أحد عماله يوصيه بأن «لا يرغب عنهم (أي الناس) تفضلاً بالإمارة عليهم، فإنهم الإخوان في الدين والأعوان على استخراج الحقوق»^(٤).

وكذلك أوصى مالك الأشر في عهده إليه:

«ولا تكونن عليهم سبباً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين وإما نظيرك في الخلق»^(٥).

ولقد اهتم الإمام في سيرته بهذه الكرامة، وكمثال على ذلك نذكر حادثتين: إحداهما في مدينة الأنبار قبل التوجه إلى صفين، والثانية بعد عودته منها عند قبيلة النشاميين كما ورد في نهج البلاغة^(٦)؛ حيث إنه حذر الناس وشيخ قبيلة النشاميين من التعظيم أمام الحاكم؛ لأن الإنسان له عزة وكرامة ولا بد أن لا تخدش بأي وجه.

وفي بعض الأحاديث المنقولة عنه (ع) إشارة نوعاً ما إلى الكرامة الاكتسابية وهي في الأغلب بمعنى عزة النفس، وربما أمكننا القول: إن عزة النفس هذه تنمو على ضفاف تلك الكرامة. هذا والأصول المستفادة من هذا المبنى عبارة عن المراقبة والمشاركة، وسنعرض هاهنا لتوضيحهما بالترتيب:

١- أصل المراقبة:

لما كان الإنسان يتمتع بالكرامة والعزة، فلا بد ألا يتعامل معه كسائر الموجودات الوضيعة والأقل منه رتبة؛ ولذلك فله الحق بمراقبة المسائل السياسية والاجتماعية المتعلقة به، وتقريباً فإن تمام كلامه (ع) والوارد في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعد مصداقاً واضحاً لهذا الأصل؛ حيث إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجيزان للناس التدخل في الأمور الثقافية والاجتماعية والسياسية ومتابعة أحداثها.

ولقد عدَّ الإمام (ع) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من باب الإيمان والجهاد كما ورد في نهج البلاغة^(٧). ومعنى ذلك أن من أوصاف المؤمنين، المحققة في أفعالهم امتلاكهم روح المسؤولية تجاه قضايا الدولة السياسية والاجتماعية. ومن ثم، فإنه يذكر سلام الله عليه

في نهج البلاغة الآثار الاجتماعية والسياسية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيقول: «لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم»^(٨).

ومثل هذا الكلام إنما يدل على أنه لو لم تكن هناك مراقبة شعبية، فستقع الحكومة في يد الأشرار والفجار. وهذا أوضح دليل على أصل الرقابة. ومن البديهي أن هذا الأصل يبتني على تلك الكرامة والشرف الإنساني. ولو عممنا هذا الكلام بشيء من المسامحة لأمكن القول بأن الحكام الشرفاء سيرتكبون الأخطاء الكبيرة من دون الرقابة الشعبية.

ويطلب الإمام (ع) في نهج البلاغة، من الناس مثل هذه الرقابة فيقول: «فلا تكلموني بما تُكلم به الجبابرة، ولا تتحفظوا متى بما يُتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استئقلاً في حق قيل لي... فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل فإنني لست بنفسي بفوق أن أخطئ، ولا آمن ذلك من فعلي، إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني...»^(٩).

فالإمام (ع) مع ما له من مقام العصمة يعطي هذا الدرس الكبير لأولاده وأتباعه ويطلب من المأمورين بحكومته أن يراقبوه. وعليه عندما تسند الحكومة إلى أناس عاديين معرضين للخطأ، فإن مثل هذه المراقبة الشعبية مؤثرة جداً وأكثر ضرورة.

ولكي تنظم مثل هذه الرقابة فإننا نأمل من النظام التربوي الذي يهيئ الأجيال القادمة أن يعرض الطرق المتناسبة مع ظروف الطلاب العمرية وخصوصياتهم النفسية والاجتماعية لكي نقدم إلى المجتمع جيلاً جديداً يقوم بهذا الدور الحيوي.

وأما الأساليب المرتبطة بهذا الأصل فهي عبارة عن:

أ- إظهار النقد وإبداء الرأي:

ولو قبل هذا الأسلوب بشكل أساسي وكان لمدراء المدارس نظرة إيجابية إليه، فسوف يكون ذلك مؤثراً جداً في تربية الطلاب سياسياً ومدنياً، وسيؤثر ذلك أيضاً في تنمية مستوى الإدارة حتى تعلم المكانة الواقعية لهذا الأسلوب؛ ولذا فإن أماننا طريق طويل؛ لأن التطبيق الصحيح لهذه الطريقة يستلزم تأسيساً ثقافياً على مستوى المدراء والمعلمين.

ومن أسهل الطرق لتحقيق هذا الأسلوب على مستوى المدرسة وضع صندوق للانتقادات وإبداء الرأي وكذلك مجلة الحائط المدرسية والتقارير الأخبارية فإنها تبعث على ترغيب الطلاب بمراقبة المسائل التعليمية وتقديم آرائهم.

ب- إقامة جلسات البحث والانتقاد

وهذا الأسلوب مفيدٌ جداً في التحقق العيني لأصل المراقبة ما يوجب ترسيخ ذلك عند الطلاب وزيادة قدرتهم الفكرية والجرأة على بيان الآراء.

ويخاطب الإمام(ع) مالك الأشر فائلاً: «وتجلس لهم مجلساً عاماً... حتى يُكلمك مُكلمهم غير متنتعٍ...»^(١٠).

وعليه فمن دون تنفيذ هذا الأسلوب سوف تبقى نقاط الضعف والقوة مسكوتاً عنها، وفي مثل هذه الحالة سينتشر الضعف والعجز والفساد؛ ولذا فإن هذا الأسلوب التربوي سيشعر الطلاب بالمكانة والاحترام، وبأنهم مواطنون محترمون وأن أفكارهم جديرة بالاستماع والانتباه والإمام(ع) في عهده لمالك الأشر كان يسعى إلى مثل هذا الهدف.

٢- أصل المشاركة

وبناءً على هذا الأصل لا بد للناس من المشاركة في القضايا الاجتماعية والسياسية والثقافية؛ أي أن تسير أمور الناس بمشاركتهم وحضورهم. وهذه المشاركة لها أوجه متعددة، وهي في عالمنا المعاصر والفكر السياسي والتربوي المعاصر لؤلؤة مضيئة وقيمة.

وتعد البيعة في نظام الإسلام السياسي أحد المصايد البارزة لمشاركة الشعب في أمور السياسة والاجتماعي رغم أنها لم تكن من إبداع مسلمي صدر الإسلام، بل كانت موجودة في سنن الجزيرة العربية في ذلك الوقت، إلا أن إمضاء الإسلام لها يشير إلى أن الإسلام كان مهتماً بمشاركة الشعب في الأمور السياسية والثقافية أصل مهم جداً.

وقد أعلن الإمام(ع) في الخطبة الثالثة من نهج البلاغة والمعروفة «بالشقشقية» أن حضور الأمة كان الباعث على قبول الخلافة لتحقيق العدالة:

«أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر... لألقيت حبلها على غاربها»^(١١).

ويؤكد سلام الله عليه بقوله: «يد الله مع الجماعة...»^(١٢) على حضور الناس مجتمعين بشكل فعال ومؤثر.

ويقول أيضاً: «أيها الناس إن لي عليكم حقاً ولكم علي حق... وأما حقي عليكم فالوفاء

بالبيعة والنصيحة في المشهد والمغيب والإجابة حيث أدعوكم»^(١٣). وهذه الإجابة والنصيحة من المصاديق البارزة لمشاركة الناس في الحكومة عموماً وفي دائرة المسائل الاجتماعية والسياسية بشكل خاص.

وكذلك يقول سلام الله عليه في عهده لملك الأشر: «وإنما عمادُ الدين، وجماعُ المسلمين، والعدةُ للأعداء: العامةُ من الأمة فليكن صغوكُ لهم وميلك معهم»^(١٤).

ورغم أن هذه الجمل خصصت مشاركة الناس بالناحية الدفاعية، إلا أن كلامه الآخر (ع) يشير إلى أن الناس أيضاً هم عماد الدين من الناحية الثقافية والاجتماعية. ولقد سعى الإمام مدة خلافته القصيرة إلى حث الناس على التدخل المسائل السياسية والاجتماعية ودعوتهم إلى المشاركة الفعالة في تلك المسائل. بمعنى الحضور الواعي في الساحة السياسية والاجتماعية. والميزة الأساسية لهذا الحضور ستكون النصح المرافق للتفكير والتعلل، وإلا فإن الحضور المغفل سيكون كحركة السيل الهدام والمدمر، ولقد ذم الإمام (ع) في الخطبة ٣٩ أولئك الذين غرقوا في الغفلة واختاروا طريق الضلال. وربما تكون هذه النظرة السلبية مؤيداً لهذه النظرة وهي أن المجتمع الإسلامي بحاجة إلى الحضور الفعال والواعي للأمة، وإلا فلن يقوم الحق ولن تهيأ أسباب سعادة المجتمع وراحته.

وأما الطرق والأساليب التي يمكن إرادتها في نطاق أصل المشاركة لتحقيق التربية السياسية، فهي عبارة عن:

أ- الانتخابات:

إن الانتخابات هي أحد أهم مصاديق المشاركة في إدارة الدولة والمسائل الاجتماعية والسياسية، وبإجرائها في المدارس ستعدُّ نوعاً من التمرين والإعداد لأجل المشاركة في مراحل متقدمة في المجتمع؛ حيث إن المدرسة مجتمع صغير يتمرن فيه الطلاب على الوسائل الاجتماعية المناسبة، فيهيئون أنفسهم للحضور في المجتمع الكبير. وبناءً على ذلك، فإن انتخاب عريف للصف مثلاً وكذلك ممثلين للطلاب وبرلمان المدرسة وغير ذلك يعدُّ طرقاً حديثة للحضور الواقعي للطلاب في المجتمع.

ب- توزيع المسؤوليات

ولأجل تحسين مستوى المشاركة والتمهيد لمثل هذه التجربة لتحقيق أهداف التربية المدنية والسياسية لا بد من القيام بهذا الأسلوب بصورة عاقلة؛ حيث إن توزيع المسؤوليات

المتناسبة مع طاقات الطلاب توجب عزة النفس والاعتماد عليها. ومن الضروري أن يُقبل هذا الأسلوب وأن يحظى بمكانة معتبرة عند إدارة المدرسة وكذلك لا بد من عدم حصر توزيع المسؤوليات بالأمر التنفيذي، بل لا بد من تعميمها لتشمل اتخاذ القرارات أيضاً.

مبنى الضعف:

إن إحدى المميزات الأساسية عند الإنسان ضعفه وعجزه، والمراد من ذلك تلك المحدوديات المرتبطة بذات الإنسان. ولا بد لنا ألا نتوجه إلى إمكانات الإنسان فقط؛ لأن ضعفه وعجزه له تأثير على حياته ومصيره، يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: ﴿خلق الإنسان ضعيفاً﴾^(١٥).

وعليه، فمع أخذنا للضعف البشري بعين الاعتبار فإن ذلك سيساعدنا على رسم الطرق الصحيحة للحياة والتعامل الاجتماعي بصورة عامة والأساليب التربوية بصورة خاصة؛ لأن أي مؤسسة ناجحة هي التي تتعاطى مع الإنسان بصورة واقعية وتأخذ بعين الاعتبار ضعفه وإمكاناته.

ويذكر الإمام علي(ع) في وصيته لابنه الإمام الحسن(ع) بعضاً من نظريته المعرفية للإنسان، ويصور قسماً من محدوديات الإنسان فيقول: «من الوالد الفان، المقر للزمان، المدير العمر، المستسلم للعالم، الساكن مساكن الموتى، والظاعن عنها غداً، إلى المولود المؤمل ما لا يدرك، السالك سبيل من قد هلك، غرض الأسقام، ورهينة الأيام، ورمية المصائب، وعبد الدنيا، وتاجر الغرور، وغريم المنايا، وأسير الموت، وحليف الهموم، وقرين الأحران، ونصيب الآفات، وصريع الشهوات، وخليفة الأموات...»^(١٦).

ويشير في مكان آخر أيضاً إلى ضعف الإنسان، فيقول: «لقد علقت بنيات هذا الإنسان بضعة هي أعجب ما فيه وهو القلب... إن أسعده الرضا ينسى التحفظ... وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع، وإن أفاد ما لأطغاه الغنى، وإن عضته الفاقة شغله البلاء... وإن أفرط به الشبع كظته البطنة...»^(١٧).

وبناءً على ذلك لو نظرنا بصورة واقعية إلى هذا الإنسان الترابي ووضعنا قدراته وإمكاناته إلى جانب ضعفه ونواقصه، لأمكننا اختيار الأساليب النافعة والواقعية في المجتمع والعلاقات الإنسانية.

والإمام(ع) في عهده لملك الأشتر يلفت نظره إلى ضعف الإنسان وعجزه الناتج عن

ذلك ويبين له الأسلوب الناجع للتعاطي مع ذلك فيقول: «يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه»^(١٨).

وهذه الجملة الأخيرة تشير أيضاً إلى أن «مالك» نفسه لا يبعد أن يخطئ؛ لأن كل إنسان بالقوة يمكن أن يخطئ ويشتبه لأن المحدوديات تحاصره، ولو تصورنا النوع الإنساني على أساس أنه موجودات لا يمكن أن ترتكب الأخطاء والذنوب، ولا يمكن أن يصدر منها أي زلل؛ فإن التعاطي القاسي مع أخطائهم وعدم قبول أذارهم سيكون صحيحاً إلا أنه ومع وجود هذا الضعف المتجذر في الطبيعة الإنسانية لا بد لنا من التعامل مع إخواننا في الإنسانية بشكل آخر. وقد بين لنا الإمام (ع) كيفية هذا التعاطي. وكذلك فإن وجود التوبة في الإسلام دليل على ما ندعيه؛ حيث إن الإنسان ضعيف ويمكن أن تزل قدمه في أي لحظة والله يقبل توبته ويعفو عن زلله، وبناء على تعاليم الإمام (ع) وبسبب الضعف لا بد من التعامل مع الناس بالرفق والمداراة وسعة الصدر.

وربما يتصور من الناحية المنطقية وللوهلة الأولى، أن الحكومة المناسبة لمثل هؤلاء الناس لا بد من أن تكون حكومة استبدادية لتصلح أمورهم وتفرض القوانين عليهم ليأمنوا شر بعضهم. ولكن لو وضعنا هذه الخصيصة المؤثرة إلى جانب صفة الكرامة فسيحل الرفق والمداراة وسعة الصدر بدل الاستبداد والخشونة. ولأجل ذلك قلنا في مطلع المقالة بأن الأصول لا تروى من معين واحد ولذا يمكن تدعيمها بمبانٍ أخرى.

١- أصل المداراة

والمراد منها الشفقة والعطف مع الصفح والعفو عن الناس. ومن الضروري وجود ذلك في سلوك المسلمين وتعاطيهم بعضهم مع بعضهم الآخر وكذلك مع الآخرين ومن الضروري أيضاً وجود ذلك في السلوك الحكومي مع الناس. وقد أمر الإمام سلام الله عليه في الكثير من أوامره الحكومية الولاية والعمال بالمداراة، ومن جملة ذلك ما ورد في عهده لمالك الأشتر حيث يقول: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللفظ بهم»^(١٩).

وكذلك يدعو في مقاطع أخرى من هذا العهد إلى الرفق بالناس والمداراة لهم وأن يبسط لهم جناح محبته.

ويكتب أيضاً إلى الحارث الهمداني «واصفح مع الدولة لك العاقبة»^(٢٠).

ويقول لعبد الله بن عباس والي البصرة: «فحادث أهلها بالإحسان إليهم، وأحلل عقدة الخوف من قلوبهم»^(٢١).

ويوصي محمد بن بكر والي مصر في كتابه إليه: «اخفض لهم جناحك وألن لهم جانبك وابسط لهم وجهك...»^(٢٢).

ولقد راعى الإمام (ع) هذا الأصل في سيرته العملية بصورة شفافة ففي كثير من خطبه التي ألقيت في ظروف تستدعي النقد في ذلك الوقت نتيجة لسلوك الناس السياسي والاجتماعي كان يُبرز مدى تحمله ومداراته للناس. ومثال ذلك في الخطبة ٦٩ من نهج البلاغة والتي ألقاها منتقداً السلوك السياسي والاجتماعي لأهل الكوفة فإنه يقول في ابتداء كلامه «كم أداريكم...».

والمدارة من الناحية النفسية تعني التخلي عن حق الذات واعتبار الآخرين والاعتقاد بحقهم وحقوقهم.

والإمام (ع) عندما يقول لمالك الأشرن إن الناس «صنفان إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق»^(٢٣) يشير إلى ضرورة الاهتمام بالآخر حتى لو كان مختلفاً.

وأما من الناحية الاجتماعية، فإن الإدارة توجب تلطيف العلاقات الفردية. ومن الناحية السياسية وكما هو الحال في سابقتها فإنها ترطب علاقات الحكام مع المحكومين. ويبين الإمام (ع) في خطبة المتقين فيقول في وصف المنقي: «مكظوماً غيظه، الخير منه مأمول والشر منه مأمون... يصل من قطعه، بعيداً فحشاه، ليناً قوله، غائباً منكروه، حاضرأ معروفه، مقبلاً خيره مدبرأ شره... نفسه منه في عناء والناس منه في راحة»^(٢٤).

وتشير هذه الجمل إلى أن الإنسان السليم في علاقاته الاجتماعية يضع الآخرين مواضعهم وهو على استعداد، لأن يتعب نفسه ولا يتعب غيره وهذه هي الإدارة.

وعلى الساحة الاجتماعية نرى أن الإدارة المرادة للإمام (ع) والتي توجب تحسين العلاقات الاجتماعية هي أن يُحمد الإنسان المسلم ميوله السلبية في علاقاته الاجتماعية وبصورة واقعية، ليأمن الناس شره. وهذا هو أعلى مستوى من الإدارة بل حتى لو اعتدى الناس على حقوقه، فإنه يعفو عن ذلك كما قال الإمام (ع)، ولن يكون هذا من الضعف والعجز بل لأجل الإدارة وبدافع الإحساس بضرورة تحمل الآخرين.

هذا وليست الإدارة بمعنى غض النظر عن النقص والعيوب وعدم انتقاد الآخرين ورفع

النواقص في مسيرة الإصلاح؛ لأنها وفي حد ذاتها سياسة تربوية. ونحن نرى أنه في كثير من خطب نهج البلاغة ورسائله ومع الابتعاد عن تضليل العوام قد انتقد المسلكيات الخاطئة عند الناس وخاصة من الناحية السياسية.

أسلوب الحوار

وفي رأينا، فإن مراعاة هذا الأصل تحتاج إلى نظرة واقعية للآخرين وحينئذ يرى الإنسان الآخرين كما هم عليه، ويتأقلم مع خيرهم وشرهم وهذا ما لا بد منه في الحوار ولا بد لكلا طرفي الحوار من قبول الطرف الآخر، وكذلك لا بد من قيام علاقات عرضية مع الآخرين والتخلي عن الذات والأنا. وبناءً على ذلك، يمكن اعتماد الحوار بوصفه أسلوباً أساسياً، فيدعو المتعلمين إلى حوار في المواد الدراسية والمسائل اليومية في حياتهم الاجتماعية وكذلك المسائل المدرسية المتعلقة بالمدرسة التي يدرس فيها.

والشرط المسبق للحوار احترام رأي الطرف الآخر وأما حركة الحوار فهي تتجه نحو ترشيد آراء الطرفين لتعميق فهم الموضوعات وهو مصداق روحية التحمل والدارة من الناحية المعرفية وحتى العاطفية؛ أي أن هذا الأسلوب لو مورس بطريقة عقلانية، فلن يخرج الإنسان عن محور الذات فقط، بل إنه سينجي أيضاً من المركزية التقليدية، وسيجيز له أن يقيم وزناً لأفكار الآخرين وثقافتهم.

وأسلوب الحوار كما يظهر من تسميته مواجهة بين فردين، إلا أنه يمكننا على مستوى المراكز التعليمية من التغيير في تعداد وكيفية المواجهة والمقابلة عند الأفراد وهدايتهم إلى المقابلة الجماعية. وبهذا الأسلوب سيكون الجو مناسباً لرشد المواطنين في المجال السياسي وهذا ما يجعلهم متفاعلين مع مناسباتهم الاجتماعية والمدنية بل مع مسائل المجتمع العالمي أيضاً.

وبناءً على ذلك، فإن كل فرد يحترم ويقبل معتقدات الآخرين وآرائهم الخاصة ويسعى إلى فهمها وفي صورة صحتها يقبلها بكل شجاعة.

يقول الإمام (ع) في عهده لملك الأشر: «واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك وتجلس لهم مجلساً عاماً... حتى يكلمك مكلهم غير متتعتع...»^(٢٥).

ولو أقيمت مثل هذه العلاقة في علاقاتنا الاجتماعية وعلاقات الأمة مع الحكومة وعمل بذلك ووجد المناخ السليم لتبادل الأفكار بين الطبقات العليا والسفلى لوجد الحق حينئذٍ

مكانته الواقعية؛ ولهذا فإن سيرة الإمام (ع) في حرب الجمل والنهروان تشير إلى مدى ميله (ع) للاستفادة من هذه الأساليب .

٢- أصل سعة الصدر

والمراد من سعة الصدر القدرة على تحمل العقائد المخالفة وقبولها أحياناً. ولا بد في هذا الأصل ابتداء من القبول بالتفاوت والاختلاف بين الآراء والأفكار، وعلى الأقل تحمل ذلك ابتداءً، فقد ورد في دعاء النبي موسى (ع) عندما أراد أن يذهب لمحاورة فرعون: ﴿رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري﴾^(٢٦).

ويبشر الله في آية أخرى عباده الذين يستمعون القول فيتعبون أحسنه ﴿فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾^(٢٧).

وهذا الاستماع سيستلزم القدرة على التحمل والذي هو سعة الصدر؛ لأن الناس وإخوتنا في الدين ملوثين بالأخطاء وقد اختلطت في أفكارهم وأعمالهم وعليه لا بد من سعة الصدر في علاقاتنا معهم.

ويقول الإمام (ع): «ولا تظنوا بي استتقلاً في حق قيل لي ولا التماس إعظام لنفسي فإنه من استنقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه»^(٢٨).

فالجزمية مانع كبير أمام درك الحقيقة وقبولها، نعم بغض النظر عن القطيعة بمعنى عدم الوقوع في فخ الشك، فإن الحد الوسط لهذا الطيف تحمل عرض الآراء والقدرة على النقد والمناقشة، والآفة الكبرى لسعة الصدر التكبر، فهو يُقفل على الإنسان كل أبواب النقد والإمام (ع) يوصي مالك الأشتر بأن «احتمل الخرق منهم والعي، ونح عنهم الضيق والأنفة»^(٢٩).

أسلوب معرفة العقائد والأفكار المخالفة:

وإحدى الأساليب التي تدرج تحت ظل أصل سعة الصدر الاطلاع على العقائد والأفكار المخالفة وخاصة في دنيا اليوم؛ حيث توسعت وسائل الاتصال جداً وأصبحت من ضروريات الحياة ما يهيئ الإنسان لقبول تنوع الأفكار والثقافات.

ويمكننا الاستفادة في برامج الطلاب من دروس التاريخ والعلوم الاجتماعية والتربية الدينية لنجعلها في معرض الثقافات المختلفة، وهذا الأسلوب ينمي رغبة الأفراد باكتشاف

الحقيقة. ولا بد أن لا تكون الروح الحاكمة في هذا المجال هي، روح النفي أو الإثبات، بل روح الفهم والإدراك، وأقوال الإمام (ع) تؤيد هذا المطلب «من استقبال وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ»^(٣٠).

والمبنى الفلسفي لهذا الأسلوب من الناحية المعرفية هو التعددية، وميزة هذه التعددية أن تقبل الكثرة مؤقتاً ولكن بالتعامل والتعاطي مع الثقافات والمعتقدات والبحث والحوار سوف تقترب الكثرة قليلاً نحو الوحدة.

مبنى الاختيار

ولا نقصد في هذه المقالة الدخول في تفاصيل البحث حول الجبر والاختيار وما هو مقبول عند أكثر الفلاسفة هو أن الاختيار ميزة مسلمة عند الإنسان؛ إذ إنه قادرٌ ضمن إمكاناته على العمل طبقاً لأفكاره وميوله.

وكذلك فإن دعوة الله تعالى الناس للإيمان مبنية على شرطٍ مسبقٍ مفاده أن الإنسان حرٌّ في الانتخاب والاستجابة لذلك. وما قصة طرد آدم من الجنة إلا بيان على اختيار الإنسان، يقول الإمام علي (ع): «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً»^(٣١).

وسأله رجل من أهل الشام: «أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء وقدر من الله؟ فأجابه الإمام: ويحك لعلك ظننت قضاءً لازماً وقدرًا حاتماً، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد، إن الله سبحانه أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً»^(٣٢).

وعليه فالحرية هي الشرط المسبق للتربية السياسية والمدنية، وتؤيد بمبانٍ أخرى كالكرامة والحكمة، ومع رفض ذلك، فإن أصول وأساليب التربية السياسية والمدنية سوف تفقد هويتها، وبناءً على ذلك لا بد من أن تكون الحرية هي الروح الحاكمة على النظام التربوي؛ لأنها ليست أمراً تعليمياً، بل إنها تجريبية موهوبة. نعم إن الاستفادة منها للرشد والنمو وبالشكل الصحيح يعد أمراً تعليمياً.

ولذا لا بد من أن يكون المحتوى الضمني للبرامج الدراسية في نظامنا مبني على نهج الحرية، ولأجل ذلك فإن الأفضل هو أن نبني علاقات المعلم والتلميذ وأساليب التدريس وإدارة المدارس على هذه المباني بدل أن نضمّن طيات الكتب الدراسية بعض الأبحاث حول الحرية أو عدة أبيات من الشعر. نعم من الضروري أن نلاحظ في هذا الأمر مقتضيات

المرحلة العمرية للأطفال والشباب .

ونشير هنا إلى أن تنمية روح الحرية في الإنسان يرتبط بشكل وثيق مع أصول أخرى كالتعقل وسعة الصدر والمداراة؛ حيث إن الحرية من دون الرشد العاطفي والعقلي ستؤدي إلى الفساد، وعليه فهذه الأصول من عوامل رقي الحرية ومع عدمها، فلا طريق للحرية سوى الوقوع في فخ عبادة الهوى وهنا أصلان يتفرعان من هذا المبنى هما أصل الإجابة وتحمل المسؤولية وأصل العدالة والقانون.

١- الإجابة وتحمل المسؤولية

والمراد من هذا الأصل هو أن يتحمل كل فرد مسؤولية الواجبات الملقاة على عاتقه، وهذه المسؤولية عامة؛ إذ إن كل فرد مسؤول عن مجتمعه. يقول النبي الأكرم (ص): «كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته»^(٣٣).

ويحدُّ هذا الأصل من تبدل العلاقات الإنسانية عند الإنسان إلى علاقات استبدادية وخاصة علاقة الحاكم بالمحكومين؛ لأنها تمنع من تبدل الحكومة إلى نوع من التسلط، وبناءً على ذلك لو كان كل مسؤول يتحمل مسؤولية من تحت يده ومستجيباً لمن هو فوقه، فلن تتحول السلطة السياسية والإدارية إلى الظلم وعدم الإنصاف. والمميز الأساسي للمجتمع المدني أيضاً التوجه إلى تعريف دائرة اقتدار ومسؤولية الدولة والشعب^(٣٤).

ولقد سعى الأمير (ع) أثناء خلافته إلى معادلة الاقتدار بالمسؤولية فأكد في أوامره على أن الحاكم لا بد من أن يكون مسؤولاً أمام الله والأمة.

وكذلك يؤكد سلام الله عليه في رسالته إلى الأشعث بن قيس والي أذربيجان بأن الولاية أمانة وحذرته من الاستبداد بالرعية^(٣٥).

ولقد أكد سلام الله عليه أن المسؤولية عامة ليست عن المواطنين المسلمين فحسب، بل أنها تشمل أيضاً البيوت والمدن والحيوانات: «فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق... اتقوا الله في عباده وبلاده، فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم...»^(٣٦).

«وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة والتغابي عما تعنى به مما قد وضح للعيون فإنه مأخوذ منك لغيرك»^(٣٧).

ويخاطب الناس قائلاً: «فلا تكلموني بما تُكلمُّ به الجبابرة»^(٣٨). والجبار هو الذي لا

يشعر بأي مسؤولية تجاه الناس ولا يتحمل مسؤولية أعماله وقراراته.

أسلوب مسائل المسؤولين وإجاباتهم

إن إقامة مثل هذه الجلسات تعد من مصاديق هذا الأصل المتناسب مع الأجواء التربوية. وتبعث على ترسيخ قيمة تحمل مسؤولية. فيشعر المسؤول بأنه يجب عليه أن يجيب عند الاستفسار أو الاعتراض على سياساته وقراراته. وكذلك يشعر الطلاب بضرورة طلب الحق من المسؤولين وسيكون هذا الأمر منطلقاً لزمّن يتحمل الطلاب أنفسهم المسؤولية في المجتمع عندما يواجهون بالاعتراض والسؤال والاستفسارات.

وينقل الإمام علي(ع) عن لسان رسول الله(ص) مطلباً جديراً بالاهتمام حيث يقول: «لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متعتع»^(٣٩).

ولقد سعى الإمام(ع) في الكتاب ٥٣، والخطبة ٢١٦، من نهج البلاغة إلى إيجاد جو حرّ يتمكن فيه الناس بسهولة من إبداء آرائهم وهذا ما يتطلبه المجتمع السالم والفعال.

٢- أصل احترام القانون والعدالة

إن قوام الحكومة ومعيار سلامتها باحترام القانون وإجراء العدالة؛ إذ إنه لن تقوم أي حاكمية بلا قانون وعدالة. ويشمل هذا الأصل العلاقات الاجتماعية أيضاً.

وقد بين الإمام(ع) بصورة مفصّلة أفضل وأرقى كلام حول العدالة والحق، فالحق في رأيه أمر متقابل -ولله الحق فقط على الآخرين ولا حق لهم عليه- ولذا فالحياة الاجتماعية تتطلب قوانين وعدالة مبتنية على الحق وكذلك لا بد من أن تقوم العلاقات الاجتماعية على احترام الحقوق المتقابلة: «أعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي فريضة فرضها الله سبحانه لكل على كل...»^(٤٠).

وكان من أهداف حكومته(ع) إجراء القوانين الإلهية في المجتمع ومحو الظلم والجور حيث يقول:

«اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك»^(٤١).

فالمجتمع العادل، بحسب أمير المؤمنين(ع) هو الذي تنتظم علاقة الحاكم بالمحكومين فيه على القوانين والأسس المرعية الإجراء، ولقد كان(ع) مظهراً للعدالة ووفياً بشدة لهذه

القوانين، ونلمس وفاء للعدالة بما جرى معه عندما لاقى طلحة والزبير عند ابتداء خلافته وكذلك قصته مع أخيه عقيل، ويؤكد في الخطبة ١٥ من نهج البلاغة والتي أوردها عند ابتداء خلافته بأنه سيرد ما اقتطع من بيت المال بغير حق ولو كان في خدور النساء.

وعليه، فالعدالة هي من أعظم مباني الحكومة الإسلامية ولا بد للحاكم من الدقة حتى في علاقاته العادية كتوزيع النظر مثلاً، يقول الإمام (ع) في رسالته إلى محمد بن أبي بكر والي مصر: «واس بينهم في اللحظة والنظرة، حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم»^(٤٢).

ومن وظائف الحاكم بناءً على تعاليم الخطبة ١٠٥ من نهج البلاغة إجراء الحدود الإلهية (القوانين)؛ ولذا استبعد الإمام فكرة التحلل وعدم التقيد بالقانون، ولقد كانت نظرية أصحاب النهروان والتي خالفها الإمام بشدة الحاكمة المباشرة لله على البشر والتي أنتجت عملياً نوعاً من التحلل وعدم التقيد بالقوانين؛ إذ إنه لا بد للمجتمع في رأي الإمام (ع) من حكام يطبقون أحكام الله حتى تستقيم علاقات الناس في ما بينهم وقد بين الإمام (ع) مخالفته لكلام الخوارج في الخطبة ٤٠ من نهج البلاغة التي أوردها في الكوفة.

أسلوب معرفة القوانين والقواعد والسنن أو أسلوب الإرشاد

وحيث إن كل مسلم يتمتع بحق وحقوق في المجتمع الإسلامي، فإن هذه الحقوق متقابلة في نظر الإمام علي (ع) ولذا لا بد من معرفتها، ومن جهة أخرى فإن العلاقات الإنسانية في المجتمع تُظمت على أساس القوانين ولذا من الضروري جداً معرفة هذه القوانين أيضاً. وعليه لا بد للنظام التربوي أن يتحمل عهدة هذا الأمر أثناء الدراسة الابتدائية والمتوسطة وبصورة كلية يمكننا أن نضمن هذا المحتوى في بعض الدروس كاللغة والأدب والتربية الاجتماعية وكذلك في النشاطات اللاصفية.

ولهذا الأسلوب آثاره الواضحة في سيرة الإمام علي (ع)، والذي سعى في أكثر من خطبة ورسائله إلى تنبيه الناس حول المسائل السياسية والاجتماعية فنراه في الخطبة ١٤ من نهج البلاغة، والتي أوردها في نقد أهل البصرة وسلوكهم السياسي والاجتماعي يشير إلى أن غفلة أهل البصرة هي السبب الرئيسي للتسلط عليهم، فأصبحوا كالألة في يد العمال الفاسدين.

ونستنتج من هذا الكلام أن يقظة الناس ووعيهم السياسي والاجتماعي هي السبيل إلى

مقاومة الاستعمار والظلم. وهذا ما بيّنه الإمام (ع) في الخطبة السادسة، حيث يشير إلى أن وعي الناس ويقظتهم شرط لتحقيق النصر والتوفيق وعدم الهزيمة، وأن اليقظة تضمن للإنسان سلوك طريق الصواب ومواجهة عوامل الانحراف وركود المجتمع.

وبناءً على ذلك، فإن توعية الناس لاسيما الأطفال والشباب على عوامل الانحراف، ستخفف آثاره الهدامة وتضمن لهم الحركة السليمة في المجتمع. ويشير الإمام (ع) إلى أنه اتخذ هذا الأسلوب لتربية ولده فيقول: «وأن أبتدئك بتعليم كتاب الله عز وجل تأويله، وشرائع الإسلام وأحكامه، وحلاله وحرامه، ولا أجاوز ذلك إلى غيره، ثم أشفقت أن يلتبس عليك ما اختلف الناس فيه من أهوائهم وآرائهم، مثل الذي التبس عليهم، فكان إحكام ذلك على ما كرهت من تنبيهك له، أحب إلي من إسلامك إلى أمر لا آمن عليك به الهلكة...»^(٤٣).

ولذا فإن التنبيه من الشور والعوامل المهلكة توجب الاستقامة في طريق الحق وتؤمن سلامة الحياة الفردية وتقلل من إمكانية السقوط والوقوع في فخ الرذائل.

وإن أسلوب التوعية والإرشاد سواء بالتعليم المباشر أم غير المباشر سلبياً أم إيجابياً له تأثير مهم في محتويات الدروس والنشاطات التربوية والتعليمية. ومما يؤسف له أن هذا الأمر لم يؤخذ على محمل الجد، وربما تعومل معه بشكل سطحي أحياناً. وبعبارة أخرى: إن أكثر الناس وخاصةً جيل الشباب لا يعرف السلوك السليم، ولو عرفه لا يسعى إلى تطبيقه وكذلك لا يفهم دلالات السلوك المعاكس ولا يهتم بعواقبه الهدامة والمدمرة لأعماله ومسلكياته.

مبنى التفكير

ومن المميزات الهامة عند الإنسان، التفكير. وهذه الصفة تميز الإنسان عن الحيوانات وهي المرادة للفلاسفة عندما يقولون: «الإنسان حيوان ناطق»، ولقد صور الإمام (ع) هذه الصفة البشرية في الخطبة الأولى من نهج البلاغة والتي تتكلم عن خلق الإنسان فيقول فيها: «... ثم نفخ فيها من روحه فمثلت إنساناً ذا أذهان بحيلها وفكر يتصرف بها وجوارح يخدمها وأدوات يقلبها»^(٤٤) ويشير أيضاً في نفس هذه الخطبة إلى فلسفة بعثة الأنبياء (ع) قائلاً: «فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه... ليثيروا لهم دفائن العقول...»^(٤٥).

أ- أصل العقلانية

ويتفرع هذا الأصل على مبنى التفكير بمعنى أن عنصر العقلانية له دور أساسي في الحكومة والإدارة والسلوك السياسي؛ وعلى هذا الأساس بُنيَ سلوك الإمام(ع) السياسي والمدني، فنراه يتكلم عن أسباب قبوله الخلافة وكأن العلم والفكر أهم عامل لحكومته وخلافته فيقول: «ولولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالمٍ ولا سغبٍ مظلومٍ لا لقيت حبلها على غاربها...»^(٤٦).

وإن تحقق العدالة في المجتمع منوط بحضور العلماء. وبيان آخر الإدارة المبتنية على العلم والعقل. ولقد أكد الإمام بشدة في سائر بياناته على دور الفكر والعقل، فنراه يوصي مالك الأشر بأن يتفكر في العقود لئلا ينخدع، ويوصي الحارث الهمداني بأن يعتبر بما مضى من الدنيا لما بقي منها.

وما تقدم في البحث حول العقلانية هو من جهة العقل النظري. والأهم من ذلك في مجال التربية السياسية الالتفات إلى العقل العملي. وبعبارة أخرى الأخلاق؛ لأن معرفة القوانين والمقررات والآراء والثقافات والحوار والبحث والفكر النقدي لها الأثر المهم في التربية السياسية والمدنية ستكون مبتورة من دون ذلك.

وعليه فالمراد من العقل العملي الاهتمام بتربية العواطف والأخلاقيات. ولقد قدم الإمام(ع) في أسلوبه التربوي جانب التربية العاطفية والأخلاقية على التربية المعرفية وأشار إلى ذلك بشكل سلبي في قسم من الخطبة ٣١ من نهج البلاغة، فيقول إن هذه الحركة تبدأ من القلب وتختتم بالعقل:

«فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك، ويشتغل لبك...»^(٤٧)

ويمكننا القول: إنه لا بد ابتداء في التربية السياسية والمدنية من حب الخير ومثاله القلب، ومن ثم معرفة الخير والعمل به. وبعبارة أخرى: إن الشرط اللازم للحضور السليم للإنسان على الساحة السياسية والاجتماعية والعمل فيها هو امتلاك الميل العاطفي الإيجابي. وباللحاظ الفلسفي، فإن المعرفة والميول هي تحقق العمل.... وكذلك فإن الاتجاهات والميول هي الحلقة الضائعة بين العلم والعمل، وأن ما يرى في كلام العظماء ولا سيما عند علي(ع) حول قبح العلم بلا عمل وكذلك ما يقال في عصرنا هذا عن عقم المتخصصين والعلماء من حيث القيم وتبدلهم إلى آلةٍ ووسيلةٍ للتسلط والقدرة. إنما هو

بسبب فقدان هذه الحلقة؛ أي أنه لا بد، إلى جانب تربية القوى المعرفية، من تربية العواطف والتوجه نحو الحق والقيم.

ويتألم الإمام (ع) عندما ورده هجوم جيش معاوية على الأنبار، فخطب الناس قائلاً: «أيتها النفوس المختلفة والقلوب المتشتمة، الشاهدة أبدانهم والغائبة عنهم عقولهم، أظأركم على الحق وأنتم تنفرون عنه نفور المعزى من وعوة الأسد، هيهات أن أطلع بكم سرار العدل أو أقيم اعوجاج الحق»^(٤٨).

وبناءً على ذلك، فإن حضور القيم والميول العاطفية شرط لازم للتربية السياسية، والذي نراه عند مفكري اليوم الالتفات إلى موضوع التربية العاطفية المناسبة لحضور المواطنين على الساحة السياسية والاجتماعية.

ويؤكد متخصصو التربية على تنمية وإيجاد القيم الأخلاقية المناسبة والمؤثرة في نطاق التربية السياسية والمدنية أيضاً لزيادة المشاركة السليمة للناس في المسائل الاجتماعية والسياسية ويشيرون إلى بعض الصفات كحب الآخرين والاعتماد عليهم والعفو والصدق والشجاعة والحلم^(٤٩).

إن تربية العواطف ضماناً لعمل الخير في المجتمع ومن دون ذلك سيتحول الحضور الفعال للمواطنين على الساحة الاجتماعية والسياسية إلى تحركات سلطوية واستبدادية، وإن كلام الإمام (ع) في هذا المجال مصدر هداية وإشعاع، فيأمر الولاة والعمال بمراقبة النفس وتربيتها وتزيينها بالصفات الحسنة، وهذه هي الأرضية المناسبة للسلوك الاجتماعي الصحيح.

ولأجل إيجاد التعادل المطلوب بين العنصرين الأساسيين في المسائل السياسية أي الاقتدار والمسؤولية لا بد من تربية القيم والميول العاطفية أيضاً. وكذلك فإن سلامة النفس من حيث العمل والسلوك والسياسي والاجتماعي يقلل من الانحراف والعناد وحب الذات، وهذا ما كان يشغل الإمام (ع) أثناء تصديه للخلافة، فنراه في رسالته إلى شريح بن هانئ (الكتاب / ٥٦) وإلى الأسود بن قطبة (الكتاب / ٥٩) وإلى كميل بن زياد (الكتاب / ٦١) وإلى بعض جباة الأموال في أصفهان (الكتاب / ٢٦) وفي رسائل أخرى أيضاً يضمن تلك الرسائل الخصوصيات الأخلاقية اللازمة لمن يدير الأمور كإخلاص النية لله والإنصاف وحسن السلوك والتواضع والصدق والصبر وستر عيوب الناس وذكر الموت والشجاعة وعدم التعلق بمظاهر الدنيا واحترام القوانين والعفو والرحمة.

سنة الشورى

الشورى والمشورة وهي عبارة عن العقل الجمعي، ولأجل ذلك ذكرنا هذا الأسلوب في بحث أصل العقلانية، وربما يؤيد هذا الأسلوب أيضاً بمبنى الضعف (الذي ذكرناه سابقاً)؛ لأن ضعف الإنسان يتعلق بمصادره المعرفية أيضاً؛ إذ إنه غير قادر بمفرده على درك وفهم كل المسائل والأمور. وقد التفت الإمام (ع) إلى الضعف المعرفي في الكتاب ٣١ من نهج البلاغة.

فيقول لولده: «فإن أشكل عليك شيء من ذلك فاحمله على جهالتك به، فإنك أول ما خلقت خلقاً جاهلاً ثم علمت، وما أكثر ما تجهل من الأمر، ويتحير فيه رأيك ويضل فيه بصرك ثم تبصره بعد ذلك»، وبناءً على ذلك، فإن اتجاه التفكير الجمعي والمشارك يمكنه أن يجبر مثل هذا الضعف.

ونحن نرى حضور المشورة بشكل جدي في كلام الإمام (ع) وسيرته، فقد كان يستشير أصحابه عند انتخاب الولاية واتخاذ القرارات. فنراه في الخطبة ٢١٦ من نهج البلاغة يطلب المشورة من الناس، وفي عهده إلى مالك الأشرع هناك بحث مفصل حول ما يلزم المشورة فيه وما لا يلزم، والمهم في هذا الأسلوب عرض الآراء المختلفة ومناقشتها من نواحيها المتعددة واختيار الأفضل منها.

قال سلام الله عليه: «من استبد برأيه هلك ومن شاور الرجال شاركها في عقولها»^(٥٠).

ويقول في موضع آخر: «اضربوا بعض الرأي ببعض يتولد منه الصواب، وامخضوا الرأي مخض السقاء ينتج سديد الآراء»^(٥١).

وهذا أجمل كلام حول العقل الجمعي المشترك، وحتماً من يستند في سلوكه إلى هذا الأصل سوف تقل أخطأؤه عندما يقرر أمراً ما.

إن برلمانات المدارس هي نوع من التمرين والتهيئة لحياة اجتماعية وسياسية مبنية على العقل الجمعي. وعليه لا بد من وضع أسلوب التشاور والشورى في النظام التربوي ليحتل مكانته المناسبة والمحمكة على مستوى المجتمع، ولأجل الوصول إلى الهدف أي تحكيم مكانة الشورى في المدرسة لا بد لنا أن نغير نظرتنا الأساسية لعلاقات الناس وأساليب الإدارة.

ومن الصعب على مدرائنا الذين ترعرعوا في نظام مركزي بشكل كامل والذي كانوا ينفذون القرارات المفروضة عليهم من المراكز العليا أن ينسجموا مع الأساليب المبتنية على المشاركة والحوار؛ ولذا لأجل إيجاد الشورى في المدارس لا بد من إيجاد الجو الثقافي المناسب لذلك وللوصول إلى هذا الهدف فإن أماننا طريق طويل جداً.

أسلوب تقييم القوانين والسنن والأفكار (الفكر النقدي)

إن المجتمعات البشرية في حال تغير وتبدل دائم. وكذلك السنن والقيم والقرارات والعلوم والأفكار. فالثبات هو الاستثناء وأما التحول والتغير فهو القاعدة.

فالمجتمعات، بشكل دائم، في حال نقد وتقييم وإصلاح وتنقيح التقاليد والعادات والأفكار وهذا من أهم الأمور للنظام التربوي أي أسلوب التحول المرافق دائماً للتقييم والاختيار.

وإن إيجاد مثل هذا الحس عند المواطنين يعد من الحاجات الأساسية للمجتمع المتحرك؛ حيث إنه في مثل هذا المجتمع لا بد من أن يملك المواطنون قدرة التقييم والتفكير النقدي وهذا الأسلوب قابل للتنفيذ في مختلف الدروس في مدارسنا لأن إجازة النقد والانتقاد في فضاء المدارس سيؤمن الأرضية اللازمة لكتب قدرة التفكير الانتقادي والذي هو وسيلة هامة للوصول إلى الرأي السديد كما ينقل عن الإمام علي(ع): «ومن استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ»^(٥٢).

وكلما اشتدت قوة التفكير العلمي عند أفراد المجتمع، فإن ذلك سيققل من تبعيتهم لأحاسيسهم، وهيجاناتهم الفطرية في مشاركاتهم السياسية والاجتماعية، بل ستكون مثل هذه المشاركة غنية مثمرة ومحكمة دائمية.

ويقول الإمام(ع) في عهده لمالك الأشر:

«وأكثر مدارس العلماء ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك وإقامة ما استقام به الناس قبلك...»^(٥٣).

ولا يريد الإمام(ع) من هذا الكلام مجرد الجلوس بل زيادة إشراك العلماء في الإدارة السياسية... والمدن والبلاد. ولذا فإن التفكير العلمي هو أساس إعمار الدولة وإصلاحها ومن الحاجات الهامة للمواطنين على مستوى التربية السياسية.

الهوامش

- (١) إن هذا التقسيم للمباني والأصول والأساليب أخذ من كتاب «نكاهي دواره به تربيت اسلامي» (نظرة ثانية على التربية الإسلامية) تأليف الدكتور خسرو باقري، والنكته الهامة هاهنا أنه على مستوى الأساليب التربوية ومع توجهه إلى المباني التربوية يمكن ابداع الأساليب المتناسبة مع الشرائط الزمانية والمكانية، ولقد سعينا في هذه المقالة إلى الاستفادة من هذا الاتجاه أيضاً.
- (٢) سورة الإسراء: الآية ٧٠.
- (٣) نهج البلاغة، الخطبة الأولى.
- (٤) المصدر نفسه، قسم الكتب، الكتاب ٢٦.
- (٥) المصدر نفسه، قسم الكتب، الكتاب ٥٣، عهد الأشر.
- (٦) قال (ع) وقد لقيه عند مسيره إلى أهل الشام دهاقين الأنبار، فترجلوا له واشتدوا بين يديه: ما هذا الذي صنعتموه؟ فقالوا: خلق منا نعظم به أمراءنا، فقال: والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم وإنكم لتشققون به على أنفسكم في دنياكم وتشققون به في آخرتكم، وما أفسد المشقة وراءها العقاب واربح الدعة معها الأمان من النار وروى أنه عليه السلام لما ورد الكوفة قادماً من صفين مر بالشاميين... فخرج إليه حرب بن شرحبيل الشامي وكان من وجوه قومه... وأقبل يمشي معه وهو (ع) راكب، فقال له: ارجع فإن مشي مثلك مع مثلي فتنة للوالي ومذلة للمؤمن» (المترجم).
- (٧) نهج البلاغة، قسم الحكم، الحكمة ٣١.
- (٨) المصدر نفسه، قسم الكتب، الكتاب ٤٧، وصيته إلى ولديه وأهل بيته.
- (٩) المصدر نفسه، قسم الخطب، الخطبة ٢١٦.
- (١٠) المصدر نفسه، قسم الكتب، الكتاب ٥٣، عهد الأشر.
- (١١) المصدر نفسه، قسم الخطب، الخطبة ٣.
- (١٢) المصدر نفسه، قسم الخطب، الخطبة ١٢٧.
- (١٣) المصدر نفسه، قسم الخطب، الخطبة ٣٤.
- (١٤) المصدر نفسه، قسم الكتب، الكتاب ٥٣، عهد الأشر.
- (١٥) سورة النساء: الآية ٢٨.
- (١٦) نهج البلاغة، قسم الكتب، الكتاب ٣١، وصيته لابنه الحسن (ع).
- (١٧) المصدر نفسه، قسم الحكم، الحكمة ١٠٨.
- (١٨) المصدر نفسه، قسم الكتب، الكتاب ٥٣، عهد الأشر.
- (١٩) المصدر نفسه، قسم الكتب، الكتاب ٥٣، عهد الأشر.
- (٢٠) المصدر نفسه، قسم الكتب، الكتاب ٦٩.
- (٢١) المصدر نفسه، قسم الكتب، الكتاب ١٨.
- (٢٢) المصدر نفسه، قسم الكتب، الكتاب ٢٧.
- (٢٣) المصدر نفسه، قسم الكتب، الكتاب ٥٣، عهد الأشر.
- (٢٤) المصدر نفسه، قسم الخطب، الخطبة ١٩٣.
- (٢٥) المصدر نفسه، قسم الكتب، الكتاب ٥٣، عهد الأشر.
- (٢٦) سورة طه: الآيتان ٢٥ - ٢٦.
- (٢٧) سورة الزمر: الآيتان ١٧ - ١٨.

- (٢٨) نهج البلاغة، الخطبة ٢١٦.
- (٢٩) المصدر نفسه، الكتاب ٥٣، عهد الأشر. .
- (٣٠) المصدر نفسه، الحكمة ١٧٣.
- (٣١) المصدر نفسه، قسم الكتب، الكتاب ٣١.
- (٣٢) المصدر نفسه، قسم الحكم، الحكمة ٧٨.
- (٣٣) مجموعة ورام، ج ١، ص ٦.
- (٣٤) خسرو باقري (إمكان نمو التربية المدنية في إيران).
- (٣٥) نهج البلاغة، قسم الكتب، الكتاب ٥.
- (٣٦) المصدر نفسه، الخطبة ١٦٧.
- (٣٧) المصدر نفسه، الكتاب ٥٣، عهد الأشر. .
- (٣٨) المصدر نفسه، الخطبة ٢١٦.
- (٣٩) المصدر نفسه، الكتاب ٥٣، عهد الأشر. .
- (٤٠) المصدر نفسه، الخطبة ٢١٦.
- (٤١) المصدر نفسه، الخطبة ١٣١.
- (٤٢) المصدر نفسه، الخطبة ٢٧.
- (٤٣) المصدر نفسه، الكتاب ٣١.
- (٤٤) المصدر نفسه، الخطبة الأولى.
- (٤٥) المصدر نفسه، الخطبة نفسها.
- (٤٦) المصدر نفسه، الخطبة ٣.
- (٤٧) المصدر نفسه، الكتاب ٣١.
- (٤٨) المصدر نفسه، الخطبة ١٣١.
- الحياة، ج ١، ص ١٣٩، أنظر غرر الحكم ودرر الكلم (٦٢-١٠٠).
- (٤٩) جميلة علم الهدى: نظرة على التربية المدنية في الإسلام، التربية الإسلامية الكتاب الأول.
- (٥٠) نهج البلاغة، الحكمة ١٦١.
- (٥١) أوردهما في ميزان الحكمة، ج ٢، ص ١٠٢٤، نقلاً عن: غرر الحكم، تحت الرقم: ٢٥٦٧ و ٢٥٦٩.
- (٥٢) نهج البلاغة، الحكمة ١٧٣.
- (٥٣) المصدر نفسه، الكتاب ٥٣.